

مطالعات في التصوف الاسلامي

عوارف المعارف - منشأ علوم الصوفية وفضلها

- ٢ -

وقفت بك في نهاية الفصل الماضي عند ترجمة موجزة لحياة شهاب الدين السهروردي مؤلف كتاب « عوارف المعارف » وأحب أن أقف بك في هذا الفصل عند الباب الأول والثالث من هذا الكتاب حيث يحدثنا المؤلف عن منشأ علوم الصوفية وعن فضل هذه العلوم وما تمتاز بها على غيرها من فروع المعرفة الانسانية . ولكنني أحب قبل هذا أن أعطيك صورة عامة مقاربة لأبواب هذا الكتاب في جملتها . يقع « عوارف المعارف » ، في نيف وستين باباً منها المطول المسهب ومنها المختصر الموجز . وفيها القوى الدقيق المسرف في القوة والدقة ، والضعيف المهمل الذي لا يشتمل على فكرة منظمة ولا منطق منسجم يربط أجزاءه . ولم شعث عناصره . ولكن الكتاب في جملته خصب حقاً نافع حقاً . وهو من هذه الناحية اقدر على أن يعطينا صورة قوية شاملة لما احتوى عليه التصوف من وجدانيات وإشارات وأحوال ومقامات . ولعل من أنفع أبوابه وأوفاهها هذه الأبواب التي تناول فيها المؤلف بيان منشأ علوم الصوفية وفضلها . وماهية التصوف . وسبب تسميتهم بهذا الاسم وأخلاقيهم ومعرفتهم لأنفسهم ومكاشفاتهم في ذلك . وشرح الحال والمقام والفرق بينهما . تلك هي أهم الأبواب وأكثرها حظاً من الدقة والغناء . فلنترك إذاً هذا الضرب من الكلام العام لنقف عند الباب الاول الذي أبان فيه المؤلف عن منشأ علوم الصوفية . والباب الثالث الذي أظهرنا فيه على فضل هذه العلوم وذكر نماذج منها

استهل مؤلف « عوارف المعارف » الباب الاول من كتابه بهذا الحديث الشريف : « انما مثلي ومثل مابعثني الله به كمثلي رجل أتى قوماً فقال : يا قوم اني رأيت الجيش يعينى وانى أنا النذير العريان فالنجاه النجاه . فاطاعه طائفة من قومه فادخلوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا . وكذبت طائفة منهم فاصبحوا مكانهم فصبجهم الجيش فاهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ماجئت به ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » ثم عقب على هذا الحديث بحديث آخر هو أبلغ في الدلالة على ما قصد اليه وهذا الحديث هو . « مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً . فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء فأنبتت

الكلاء والعشب الكثير . وكانت منها طائفة اخذت الماء فنفث الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا . وكانت منها طائفة أخرى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاءً ، فذلك مثل من فقه في دين الله . ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »

والغرض الذي يرمى اليه المؤلف من ايراد هذين الحديثين هو أنه يريد أن يستخلص منهما القيمة المعنوية لنفوس الصوفية والابانة عن أن هذه النفوس كانت أكثر قابلية من غيرها لما جاء به ودعا اليه من الهدى والنور رسول الله صلى الله عليه وسلم . وان حظها من صفاء السرائر ونقاء الضمائر وذكاء القلب اوفر من حظ غيرها ، فنفس العلماء الزاهدين زكت . وسرائرهم صفت ، وقلوبهم صقلت وتبأ لها من العلم حظ لم يتبأ لغيرها من النفوس . وبعبارة أخرى كانت هذه النفوس كأوعية للعلوم كما قال مسروق عن اصحاب رسول الله . وقلوب الصوفية واعية لانهم زهدوا في الدنيا بعد أن احكموا أساس التقوى . ومن هنا زكت نفوسهم بالتقوى وصفت قلوبهم بالزهد . فكانت تقواهم عوناً لهم على أن تصقل مرايا سرائرهم وتجلى صفحات ضمائرهم . وكان زهدهم عوناً لهم على ان ينصرفوا عن الدنيا وعلى أن يقبلوا على الدين اقبالا من شأنه ان يقربهم من الله ويوحدهم معه ويفنيهم فيه .

يأخذ المؤلف بعد هذا في اظهارنا على مكان العلوم الصوفية بين العلوم الاسلامية الاخرى . فذكر من هذه العلوم التفسير والحديث والفقه واصول الفقه والخلاف والجدل . ثم اخذ يعرض علينا تفاسير مختلفة للآية الكريمة « انزل من السماء ماء » وانتهى من هذه التفاسير الى تطبيق ما شتمت عليه هذه الآية بالنسبة الى العلماء الذين تخصص كل منهم في فرع من هذه العلوم التي ذكرها آنفاً . ثم انتهى من هذا كله الى أن الماء الذي انزل من السماء هو العلم والى ان اوعيته هي القلوب . فمن هذه القلوب ما سال واديه بالتفسير فكان علم التفسير . ومنها ما سال بحفظ رواية الحديث وسنده وتميز صحيحه من سقيمه فكان علم الحديث . وعلى هذا النحو من التأويل والفهم يمكنك ان تقول في غير على التفسير والحديث ما قيل في كل من التفسير والحديث ، واما علوم الصوفية فنشأت من أن نفوسهم قد احكمت أساس التقوى وزهدت فيما اشتملت عليه الدنيا من عرض زائل وزخرف حائل . فسالت اودية قلوبهم بما انصب منها من مياه العلوم التي اجتمعت فصارت هذه القلوب اخاذات .

أخذ الصوفية حظاً من علم الدراسة فأفادهم هذا الحظ من ناحية انه اظهرهم على الاحكام الظاهرة للعبادات فعملوها وعملوا بها . ثم تميزوا على غيرهم من علماء الدين بعلم آخر خاص بهم قاصر عليهم هذا العلم هو علم الوراثة . وعلم الوراثة هو علم العالم الزاهد المتقى الذى فقه الدين فقها ابان له عن قواعده واصوله بحيث يتعرف المعنى الحقيقى للدين . وليس الدين شيئاً آخر غير الانقياد والخضوع فهو مشتق من الدون . وكل شيء تضع فهو دون . فعلى هذا يصبح الدين عبارة عن ان يخضع الانسان نفسه لربه وينقاد لما أمر به . وافضل مراتب العبادة الفقه فى الدين ، فمن كان افقه فى الدين واعرف باصوله كانت نفسه أسرع اجابة وقلبه اشد انقياداً لمعالم الدين واصوله .

فانت ترى من هذه الملاحظات التى ذكرها السهروردى فى هذا الباب ان علم الشريعة قد انقسم الى قسمين متميزين : قسم اختص به الفقهاء واهل الفتيا للاحكام العامة والعبادات والمعاملات . وقسم اختص به الصوفية واهل الباطن اشتمل على ما يتعلق بهم من مراقبات ومحاسبات ، ورياضات ومجاهدات ، واحوال ومقامات . وما الى ذلك من الأمور الكثيرة التى نراها منبثة فى تضاعيف علومهم ومعارفهم . كتب الفقهاء كتبهم فدونوا فيها الاحكام التى استخلصوها من القرآن والحديث . وكتب الصوفية كتبهم فدونوا فيها مكاشفاتهم ومواجدهم التى انتهوا اليها عن طريق القرآن والحديث . ولكن هناك فرقاً بين فقه الفقهاء وتصفوف الصوفية . ذلك أن الفقه هو علم الاحكام الظاهرة للعبادات والمعاملات على حين أن التصوف هو علم المواجد القلبية ، والرياضات النفسية ، والاحكام الباطنية . وإذن فقد سعى الفقه بعلم الظاهر وسعى التصوف بعلم الباطن

ويظهرنا مؤلف « عوارف المعارف » بعد ما قدم على كيفية نشأة الشر وكيف أصبحت النفس مأوى لهذا الشر وكيف امتازت نفوس الأنبياء والاولياء على نفوس غيرهم . فذكر هذه القصة التى تلخص فى ان الله بعث جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الارض فلما أبت بعث عزرائيل لقبضها ، وكان ابليس قد وطئ الارض بقدميه فأصبح بعضها بين قدمين وبعضها الآخر بين موضع أقدامه . ومن هذه المواضع التى مستها أقدام ابليس خلقت النفس فصارت مأوى للشر . ولكن هناك جزءاً من الارض لم تصل اليه أقدام ابليس ومن هذا الجزء أصل الانبياء والاولياء . ولما كانت ذرة رسول الله موضع نظر الله من قبضة عزرائيل لم يمسسها قدم ابليس ، ولهذا لم يصبها

الجهل ، وانما كان رسول الله على العكس موفور الحظ من العلم ، والنور ، ومن هنا بعثه الله تعالى بالعلم والهدى فانتقل هذا العلم من قلبه إلى القلوب ، وانتقل هذا الهدى من نفسه الى النفوس . ومن هنا كانت العلاقة بين رسول الله وبين الذين دعاهم الى الأخذ بما بعثه الله به . وبعبارة أخرى كانت هذه العلاقة بنسبة طهارة الطينة . فمن كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة كانت نفسه أكثر استعداداً لقبول ما جاء به رسول الله . وقلوب الصوفية أقرب مناسبة من هذه الناحية ، وهى لهذا قد ظفرت بحظ كبير من العلم فأصبحت بواطنهم اخاذات فعملوا وعلّموا ، مثلهم فى ذلك كمثل الاخاذ الذى يسقى منه ويرزق منه . وهم بعد هذا ومن اجل هذا جمعوا بين فائدة علم الدراسة وفائدة علم الوراثة بأحكام أساس التقوى . ولما ان صقلت مرآيا قلوبهم وصفت صفحات نفوسهم ظهرت لهم الأشياء على حقيقتها وما هيئتها . فبانت لهم الدنيا بما فيها من قبح فأعرضوا عنها ، وبدت لهم الآخرة بما فيها من حسن فاقبلوا عليها .

وختم المؤلف هذا الباب بملاحظة لها قيمتها وخطرها فى فهم التصوف فهى صحيحة مستقيمة . هذه الملاحظة هى التى يظهرنا فيها على المعنى الذى تدل عليه لفظة الصوفى . فالصوفى عنده بمعنى المقرب . وهذه اللفظة لم يرد ذكرها فى القرآن ولكنها تركت ووضع مكانها لفظة مقرب . ولا يعرف فى بلاد الاسلام هذا الاسم لأهل القرب . وانما يعرف للترسمين . فهناك نفر كبير من المقرين فى بلاد المغرب وتركستان وما وراء النهر لا يسمى باسم الصوفية لأن افرادهم لا يزيون بزى الصوفية ، ومن هنا انتهى مؤلف « عوارف المعارف » الى أنه لا يقصد حين يتكلم عن الصوفية فى كتابه الا المقرين . وهناك ملاحظة ختامية أخرى ذكرها المؤلف فى نهاية هذا الباب ، هذه الملاحظة لها قيمتها وخطرها أيضاً إذ هى تظهرنا على الفرق بين الصوفى والمتصوف . فالمتصوف هو من تطلع الى مقام المقرين من جملة الابرار مالم يتحقق بحالهم . والصوفى هو من تطلع الى مقام المقرين حيث يتحقق بحالهم . وأما من هودون المتصوف والصوفى بمن تميز بزى ونسب الى الصوفية أو المتصوفة فهو متشبه ولنمض الآن الى الباب الثالث حيث يحدثنا السهروردى عن فضيلة علوم الصوفية والاشارة الى النموذج منها . ذكر المؤلف فى مستهل هذا الباب الحديث الشريف الذى امر فيه النبى صلى الله عليه وسلم بطلب العلم والذى جعل فيه طلب العلم فريضة على كل مسلم فقد قال رسول الله : « اطلبوا العلم ولو بالعين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » . ذكر بعد هذا الحديث الشريف آراء العلماء من المتقدمين

ان اتناول مناقشة بعض ما ورد فيه من آراء مناقشة نقدية سوف اعرض لها في مقال ختامى .

وبعد ان عدد المؤلف انواع العلوم التى ظفر بها الصوفية . قارن بين على الوراثة والدراسة مقارنة تلخص فى أن علوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة . مثلها فى ذلك كمثل الزبد الذى يستخرج من اللبن الخالص . فلم يكن لبن لم يكن زبد . ثم عرض السهروردى الى علوم الاسلام فقال ان للاسلام علومها هي علوم مبانيه . والاسلام بعد الايمان نظر الى مجرد التصديق : ولكن للايمان فروعاً بعد التحقق بالاسلام . وهذه الفروع مراتب كعلم اليقين الذى يعطيه لنا الدليل . وعين اليقين وهو ما تعطيه المشاهدة ، وحق اليقين وهو ما حصل من العلم بما اريد به ذلك الشهود . وهذه قد تقال للتوحيد والمعرفة والمشاهدة . وللإسلام فى كل فرع من فروع علومه ، وبالجملة فانك ترى أن علوم الاسلام هي علوم اللسان ، وان علوم الايمان هي علوم القلوب . ولعلوم القلوب هذه وصفان احدهما عام والآخر خاص . فاما الوصف العام فهو ان علم اليقين يتوصل اليه بالنظر والاستدلال . ومن هنا اشترك فى هذا الوصف كل من علماء الصوفية وغيرهم من علماء الدنيا . واما الوصف الخاص فهو هذه السكينة التى ازلها الله على قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً على ايمانهم . ومن هنا ترى ان علوم الصوفية اشتركت مع علوم غيرهم فى مرتبة اليقين ، وهى المرتبة الاولى ثم امتازت عليها بالمرتبتين الاخرتين وهما مرتبة عين اليقين ومرتبة حق اليقين

ويقسم المؤلف الناس طبقات انقسموا اليها بالنسبة الى نفوسهم وقلوبهم وارواحهم . فمنهم من كانت نفسه ظاهرة على قلبه . وهذا الفريق يدعوه الله بالموعظة . ومنهم من كان قلبه ظاهراً على نفسه وهذا يدعوه الله بالحكمة . فاجاب الابرار الدعوة بالموعظة بذكر الجنة والنار . واجاب المقربون الدعوة بالحكمة وهى الدعوة بمنح القرب وصفو المعرفة . ولما وجدوا التلويحات بهذا القرب اجابوا بارواحهم وقلوبهم ونفوسهم . وهم حين يتابعون الاعمال يجيبون بقلوبهم . وحين يتحققون بالاحوال يجيبون بارواحهم . فانت ترى من هذا الفرق بين الصوفية وبين غير الصوفية . فهؤلاء يجيبون بالبعض وأولئك يجيبون بالكل . والصوفية حين يجيبون بالكل يتبها لهم بالعلم والمعرفة حظ لم يتبها لغيرهم . ومن هنا كانوا اقدر من غيرهم على الوصول الى اليقين الذى لا يحيطه شك . اليقين الذى يكشف لهم عن حقيقة الذات الالهية ويظهرهم على ماهية الاشياء . بحيث ينتهون من هذا كله الى الاتحاد مع الله والفناء فيه اتحاداً يضمن لهم السعادة ، وفناء يكفل لهم السلام . محمد مصطفى حلى ماجستير فى الآداب

واختلافهم فى هذه الآراء حول هذا العلم الذى امر رسول الله بتحصيله وجعل طلبه فريضة على كل مسلم . وقد اختلف القدماء اختلافاً قوياً حول هذا العلم ماذا عسى أن يكون . فمنهم من قال هو علم الاخلاص ومعرفة آفات النفوس . « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين » . ومنهم من قال هو معرفة الخواطر وتفصيلها ، لأن هذه الخواطر هي مبدأ الفعل واصله ولا يمكن حدوث فعل اذا لم يسبقه خاطر . وذهب فريق الى انه علم الوقت . وانهى فريق آخر ومنه سهل بن عبد الله الى انه علم الحال اى حكم حال العبد الذى بينه وبين الله تعالى فى دنياه وآخرته . ورأت طائفة انه علم الحلال اوانه علم الباطن الذى يستفاد من مصاحبة العلماء الزاهدين والاولياء الصالحين . وطائفة اخرى انه علم البيع والشراء ، والنكاح والطلاق ، او انه علم التوحيد . وقد رأى أبو طالب المكي ان هذا العلم هو علم الفرائض الخمس التى بنى عليها الاسلام

تلك هي الآراء المختلفة التى رآها القدماء فى هذا العلم الذى طلبه فريضة على كل مسلم والى استعرضها مؤلف (عوارف المعارف) فى شئ من الاسباب كثير ، وانتهى من هذه الآراء كلها الى أنه أميل ما يكون الى رأى أبى طالب المكي ، والى رأى من قال بان العلم الواجب تحصيله على كل مسلم هو علم البيع والشراء ، والنكاح والطلاق ، اذا اراد الدخول فيه . ومن هنا يستخلص السهروردى ان العلم المقصود فى حديث رسول الله انما هو علم الامر والنهى . والمأمور فى علم الامر والنهى هو ما يثاب على فعله ، وما يعاقب على تركه . والنهى فى هذا العلم هو ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه . والنتيجة التى خرج بها المؤلف من هذا الكلام المستفيض هي ان علماء الصوفية عرفوا العلم المفترض على المسلمين فاقاموا دعائم علم الاوامر والنواهي بترسيمهم خطى رسول الله فى الاستقامة ، مستعينين على اقامة هذا العلم وتدعمه بما منحوا من زهد فى الدنيا وحب للآخرة وصفاء فى السرائر ونقاء فى الضمائر ، والاستقامة التى رفع الصوفية لواءها وأثروا بناءها هي سبيل المجتهد الصادق ، والصوفية حين اكرمهم الله بالزهووض بواجب هذه الاستقامة رزقوا سائر العلوم كعلم الحال ، وعلم القيام ، وعلم الخواطر ، وعلم اليقين ، وعلم الاخلاص ، وعلم النفس ، واخلاصها وشهواتها وما الى غير ذلك من العلوم المتعددة التى ظفر بها الصوفية وحرماها غيرهم من علماء الدنيا . وهذه العلوم كلها ذوقية وجدانية يستعان فى تحصيلها بالذوق والوجدان .

وكم كنت احب ان اقف وقفة قصيرة عند اختلاف القدماء فى أمر هذا العلم المفترض ابين فيها مقدار حظ هذه الآراء من الصواب أو الخطأ . ولكن حسى ان أوجز لك الآن ما اعترمت إيجازه من ابواب الكتاب إيجازاً يعطيك صورة مقارنة له ، على